فرانك ماريا رايفنبرج

على ضفاف أوروفانجو

رحلة مغامرات جوستاف وكولو إلى الكونغو

تنويه

تدور أحداث هذه القصة قبل ما يزيد عن مائة وخمسة وعشرين عامًا عندما كانت هناك قوى أوروبية تسلب حقوق أبناء قارة إفريقيا وتضطهدهم وتستغلهم. قامت الاستعمارية في ذلك الزمن على عدة دعائم؛ من بينها اعتبار الناس في قارة إفريقيا «متوحشين» عديمي الثقافة. ظهر هذا الشعور الزائف بالتفوق أيضًا في اختيار الكلمات المستخدمة للإشارة إلى الناس. ولا تزال هذه الكلمات مستخدمة في كثير من الأحيان. مما جعل العنصرية تستمر في وقتنا الحاضر. سترد في هذا النص كلمات، كانت تُعتَبر آنذاك «عادية» ومتلائمة مع العصر لكنها – كانت آنذاك و لا تزال اليوم أيضًا – غير لائقة وجارحة وتزدري البشر.

«عاش آباؤنا حياة مريحة. كانت لديهم أبقار ومحاصيل. كما كانت لديهم مستنقعات مياه مالحة وأشجار موز. وفجأة رأوا سفينة ضخمة تبرز من المحيط. كان لهذه السفينة أجنحة لونها أبيض تمامًا، تلمع كأنها شفرات أسلحة. خرج رجال ذوو بشرة بيضاء من الماء وتحدثوا بعبارات، لم يفهمها أحد. فاعترى أسلافنا شعور بالفزع؛ وقالوا أن هؤلاء الرجال vumbi ؛ أرواح موتى عادت إلى الحياة. فساقوهم للعودة إلى البحر وأمطروهم بوابل من السهام. إلا أن هؤلاء الرجال نفثوا نيران أصدرت صوت قصف مدوي. وقُتِلَ الكثيرون».

الراوي "موكونزو كيوكو" من شعب "بيندي" [1]

[1] شعب "بيندي": مجموعة عرقية من سكان الكونغو الديمقراطية.

من ينظر ذات مرة في فم أفعى "المامبا السوداء"، سيدرك لماذا تحمل الأفعى هذا الاسم. إلا أنه سرعان ما سيلقى حتفه؛ هذا أمر شبه مؤكد. ولن يستطيع أن يترك انطباعًا قويًا في أحد بما اكتسبه للتو من معرفة.

تشعر أفعى "المامبا السوداء" بالارتياح على ضفاف نهر الكونغو وروافده الكثيرة. فهذه الأفعى تحب الشجيرات والغابات القريبة من المسطحات المائية.

تتصف أفعى "المامبا السوداء" بالخجل ولا تشن هجومًا أبدًا لمجرد التسلية. لكن بعد أن تقضى ليلتها في جحرها، فإنها كثيرًا ما تقوم للأسف بزيارة مساكن البشر في الفجر.

1

نشأ "جوستاف" في أكثر مكان آمن وممل في العالم؛ ففي "بوكلسن" لا يحدث شيء أبدًا. ينتفض الناس هناك عندما يثير الثعلب فوضى في قفص الأوز أو عند نفوق بقرة بسبب الجمرة الخبيثة. وذات مرة أخذ شخص ما كيس جمع التبرعات في الكنيسة معه إلا أنه أعاده سرًا بعد ذلك بيومين خوفًا من غضب الرب.

لكن آنذاك غيَّر حدث غير متوقع حياة "جوستاف" فجأة. وهذا فقط؛ لأنه نسى في ذلك اليوم الجميل من أواخر الربيع سلة في متجر "إيرنا" ذات الظهر المتقوس. حيث سبق له وأن أحضر للسيدة في هذه السلة أربعين بيضة من بيض دجاج سلالة "ستيريا القديمة" من حظيرة دجاج عمه. كان هذا من ضمن مهامه كل يوم جمعة.

كان "جوستاف" يدرك كيف سيكون العقاب إن عاد إلى المنزل دون السلة. إذ كان عمه يتحين أي فرصة لكي يوسع ابن شقيقه ضربًا بحبل، في أحد طرفيه عقدة مربوطة. ولذلك ركض "جوستاف" عائدًا إلى المتجر من جديد. وعندئذ رآه بينما كان يخرج من المتجر مرة أخرى. الرجل الجالس على الدراجة ذات العجلة الأمامية الكبيرة العالية.

كان الرجل يضع عمامة على رأسه، ويرتدي رداءًا ملونًا وكانت هناك أجراس صغيرة وشرابة فضية على الجزء العلوي من حذائه الشتوي. عبر الرجل القرية وهو يجلس على دراجته ذات العجلة الأمامية الكبيرة العالية، مرتفعًا فوق رؤوس الناس. بينما أخذ يوزع نشرات إعلانية ويرمق الخادمات، اللواتي اندفعن من المنازل ووضعن قبضة أيديهن في خاصرتيهن، بنظرات وقحة لدرجة أن احمَّرت وجوههن خجلًا وقهقهن.

ومن خلفه رقص مهرجون وسيدة ذات لحية في شارع القرية المليء بالغبار؛ بينما نفخ رجل ثانٍ بدين في آلة التوبا الموسيقية[2] وقرع ثالث على طبلة بصوت يصم الآذان. جرَّ ثوران عربة، حمولتها مغطاة بستارة مخملية، تلمع بلونٍ أحمر ومن المؤكد أنها كانت ستارة فاخرة في الماضي لكنها صارت في تلك الأثناء تحمل رقعًا كثيرة. لابد وأن العربة بها وحوش ضارية، يجب حمايتها من أعين الناس الفضوليين على حافة الطريق.

وفي نهاية الأمر، تربَّع رجل يرتدي زيًا رسميًا، يتشرف أي ضابط حرس بارتدائه، عاليًا عند مؤخرة رأس جسد رمادي ضخم – كان فيلًا حقيقيًا حيًا. أمسك الرجل في إحدى يديه منديلًا وفي اليد الأخرى صولجانًا كأنه الإمبراطور "فيلهلم" شخصيًا.

«تعالَ واندهش» قالها الرجل، الذي يرتدي الزي العسكري، مرارًا وتكرارًا. «هنا ستقابل مروض أسود والفيل الراقص "المونسترو" وامرأة الأفاعي! كل هذا وأكثر بكثير سيثير إعجاب السادة الكرام في السيرك العالمي المثير "كوريلي". لم يسبق للعالم أن شهد مثل هذا من قبل، لم يسبق لـ"بوكلسن" أن شهدت مثل هذا من قبل!»

ضغط عازف آلة التوبا الموسيقية على آلته الموسيقية ليعزف سلام مربع بينما قرع عازف الطبلة عليها عدة مرات متتالية وهلَّل المهرجون وتشقلبوا.

«وإن كان هذا لا يزال غير كافٍ بالنسبة لك، فسترى شيئًا يسرق النوم الهانيء من عينيك ليلًا. حصريًا وفقط في "كوريلي": استعراض فرقة الكونغو الزنجية العظيمة؛ آكلو لحوم بشر حقيقيون من أعماق أدغال إفريقيا. بصحبة أفضل رامي سهام، يمكنه مواجهة "فيلهلم تيل"[3] في أي وقت».

عندما ورد ذكر كلمة *الكونغو*، قفزت إلى ذهن "جوستاف": مدينة "بوما" ونهر الكونغو ومنطقة غرب إفريقيا؛ ذلك المكان الذي أُرسِلَت منه بطاقة بريدية إليه قبل قرابة ثلاثة أعوام، موجهة إليه، إلى "جوستاف كروجر"، وعليها طابع بريد ملون. للأسف كانت هذه البطاقة البريدية العلامة

---

[2] آلة التوبا الموسيقية: آلة نفخ موسيقية نحاسية.

[3] فيلهلم تيل: بطل شعبي سويسري عاش في القرن الرابع عشر.

الوحيدة، وفي الوقت نفسه الأخيرة، التي تشير لوجود والده على قيد الحياة؛ والذي كان قد سافر من "هامبورج" في رحلة خطيرة بتكليف من صاحب أحد المصانع. إذ كان عليه أن يساعد في استغلال مخزون النحاس في غرب إفريقيا واختفى بعد ذلك إلى غير رجعة. بعد ذلك بعام توفيت والدة "جوستاف" بسبب مرض السل وعُيِّن عمه "فريدريش زورينسن" وصيًا عليه.

لم يجد "جوستاف" وقتًا للاستغراق في هذه الفكرة؛ فعندئذ دوَّى صوت سلام مربع عالٍ بشدة. حيث انجذبت فتاة، ترتدي مشدًا مربوطًا بإحكام، في حبل خلف العربة في لمح البصر.

ظهر قفص يماثل حجمه حجم انسان.

«أوه، لطفك أيها الرب يسوع» صاحت بها زوجة الخباز وسقطت مغشيًا عليها. بينما وضعت بضعة فتيات أصغر سنًا أيديهن أمام أعينهن لينظرن بعد ذلك على الفور من بين أصابعهن. وأطلق "يونتي" و"فييته" أيضًا الأحجار الأولى على العربة.

ما من نمور ولا أسود، ولا حتى بضعة كلاب مُروَّضة من سلالة "بودل" نظرت من القفص نحو الطريق بالأسفل. فبدلًا من ذلك أخذ أربعة عشر زوجًا من العيون المتعبة ترمش؛ فقد وخزتها أشعة الشمس الصيفية الساطعة.

همس "جوستاف" قائلًا: «الكونغو» وصار مدهوشًا بشدة.

لم يحرك الأشخاص داخل القفص ساكنًا؛ فكاد البعض يظن أنهم منحوتون من الرخام، من رخام حالك السواد، لا تظهر منه سوى قطع قليلة من فراء الحيوانات، تستر عوراتهم. وقد وضع واحد أو اثنان منهم ريشًا على رأسه بينما جلس رجل على عرش خشبي في المنتصف وأخفى وجهه خلف قناع منحوت من الخشب، بعث الخوف في نفس "جوستاف" لبعض الوقت.

لم يسبق لـ"جوستاف" قط أن رأى شخصًا ذا بشرة يختلف لونها عن لون بشرة سكان "بوكلسن" ناصعة البياض. ظن "جوستاف" للحظة أن أحدًا قد دهن بالتأكيد أجساد الأربعة عشر رجلًا، ربما

بورنيش الأحذية، الذي يجعل حذاء فروسية السيد "فون موربيك" يلمع دائمًا بلون أسود فخم للغاية.

كانت مكتبة السيد "فون موربيك" تضم تقارير لرحلات بها صور فوتوغرافية لمثل أولئك الأشخاص بينما يقفون أمام أكواخ من القش؛ رجال يحملون دروعًا ورماحًا أو نساء تحملن بين أذرعهن أطفال رضع عراة. إلا أن هذه الصور الفوتوغرافية كانت مختلفة تمامًا عن هذه الكائنات الحية التي يحدق فيها "جوستاف" وسكان القرية الأخرون الآن.

تجول "جوستاف" ببصره ببطء من الرجل الجالس على العرش، الذي بدا أنه زعيم آكلي لحوم البشر هؤلاء، إلى صبي على يمينه، كان في مثل عمر "جوستاف" تقريبًا وجذب منظره انتباه "جوستاف" بشدة. إذ تخيل كيف يمكن أن يكون الأمر لو اقتاده أحد داخل قفص عبر مدينة غريبة. لم تكن هذه بالفكرة الجميلة.

طوَّق رباط به ريش جبين الصبي في العربة بينما كان هناك مسحوق ذهبي، يلمع في أشعة الشمس، منثورًا على بشرة وجهه وجسده بالكامل. أضفت عظام وجنتيه العالية وذقنه الممدودة عليه مظهرًا حازمًا. نظر الصبي من العربة نحو أسفل في تجهم وشموخ. كان الصبي يضع قوسًا حول صدره ويحمل حزمة من السهام في يده.

التقت نظرات الصبي ونظرات "جوستاف" للحظة وجيزة. اقشعر جسد "جوستاف" وشعر بالخجل من نفسه في اللحظة التالية. إذ سبق وأن نبهته والدته كثيرًا ألا يحدق في الأخرين بوقاحة هكذا. «وعلاوة على ذلك، فإنك تبدو عندئذ أبله»، ما زالت كلماتها تدوي في أذنه.

مرَّت العربة أمامه وانقطع تواصلهما بالنظرات. تبع أطفال القرية الموكب الغريب بالصرخات. ظل "جوستاف" وحده في الخلف.

قفز "فييته" إلى القفص بالأعلى وهزَّ القضبان. جذبه أحد العاملين في السيرك بعنف نحو أسفل وألقى عامل أخر قطعة القماش الحمراء من جديد على الأشخاص المشحونين في العربة. دوَّت

صيحة مدير السيرك في الشارع: «هذا يكفي» وأضاف: «المزيد سيقدَّم للجمهور الذي سيدفع مالًا فقط»؛ واختفت هذه الفرقة المثيرة بالسرعة ذاتها التي ظهرت بها.

وقف "جوستاف" هناك ومعه سلة البيض وفكَّر في الصبي الذي يحمل القوس والسهام. كانت نظرته عابسة للغاية. تُرَى هل إعطاء سلاح فتاك لهذا الصبي فكرة جيدة؟

«ماذا تفعل هنا أيها الصبي الصغير؟» سمع "جوستاف" من خلفه صوت "إيرنا" ذات الظهر المتقوس. لذا ركض سريعًا ومضى في طريق العودة إلى مزرعة عمه الذي سيخطر بباله أي سبب للضرب المبرح الذي سيضربه لابن أخيه الخاضع لوصايته لكي يرسله عندئذ إلى غرفته أعلى حظيرة البقر دون عشاء.

غير أن "جوستاف" لم يفكر في بادئ الأمر في النوم، وعندما تغلب عليه الإعياء أخيرًا، ألقى بنفسه على مرتبته القش ورأى بين الحين والأخر أحلامًا مزعجة – فيها فيلة وآكلو لحوم البشر ونهر الكونغو العظيم والغابة البكر التي اختفى والده فيها بلا أثر.

استيقظ "جوستاف" في اليوم التالي قبل أن يصيح الديك وتصرخ الأبقار بلا صبر؛ لأن الحليب يضغط على ضرعها. لم ينم "جوستاف" سوى بضع ساعات.

بينما كان "جوستاف" يحلب الأبقار، أخذ يحكى لها بالتفاصيل ما رآه في اليوم السابق. كانت الأبقار المخلوقات الوحيدة في المزرعة التي تصغي له بصبر ولا تؤذيه أو تزجره لأنه لا ينبغي عليه أن يقضي وقته في سرد حكايات غبية. وهو ما يفعله الأخرون جميعًا: كبير الخدم والطباخة وعلى وجه الخصوص عمه "فريدريش". وعلى الفور، سمع "جوستاف" صوت عمه خلف رأسه.

«سيصير اللبن متخثرًا لو ملأت آذان الماشية المسكينة بالثرثرة»، زمجر بها عمه لكنه على الأقل لم يوجه ضربة لرأسه. «اذهب للسيد "فون موربيك" بإبريقي حليب، أسرع».

همس "جوستاف" في أذن البقرة الأخيرة قائلًا: «وكان معه قوس وسهام» وداعب بيده ما بين عينيها.

كان "جوستاف" متلهفًا أن ينصب عمال السيرك خيمتهم أخيرًا ويبدأوا أول عروضهم لكن كان عليه أن يتحلى بالصبر حتى ذلك الحين. ولذا حمل على كتفيه النير الصغير بكلا الخطافين الحديديين في طرفيه بحيث يمكنه أن يرفع الإبريقين من مقبضهما. كانت الحمولة لا تزال ثقيلة لكنه سينجح في أن يصل بها إلى القرية وإلى منزل السيد "فون موربيك".

لم يتحدث أهل القرية عن شيء أخر سوى آكلي لحوم البشر. تناقلت ألسنة الناس بعض الشائعات؛ ومنها أن الطباخة سمعت أن عمال السيرك استدعوا الصيدلي من المدينة وأن الأشخاص المتوحشين جلبوا أمراضًا إلى البلاد. دار الحديث عن الجدري وعن الكوليرا وحتى عن الطاعون الذي سيبيدهم جميعًا.

أما وراء الكواليس فقد تعلق الأمر بأشياء أخرى تمامًا. وكذلك كان الحال أيضًا في مزرعة عم "جوستاف". فقد دارت شائعات أن هذه النساء تستطعن أن تشعلن الرغبة الملتهبة في أي رجل. وزعم كبير الخدم أنه لا يمكن كبح جماحهن وأنه ينبغي على الرجال أن يحذروا ألا تفترسهن النساء بعد ممارسة الحب معهن؛ فهن، في نهاية الأمر، آكلات لحوم البشر. وضحك ببذاءة وضرب على فخذيه؛ ربما لأنه نفسه لم يكن يصدق حكاياته.

«عليك ألا تستمع إلى هراء الناس» قالها السيد "فون موربيك" عندما سلَّمه "جوستاف" اللبن. كان السيد "فون موربيك" قد سافر في رحلات واسعة حول نصف بلدان العالم ولديه مكتبة لا يستهان بها. «الأمر ذاته ينطبق على آكلي لحوم البشر وعلى الشهوة وببساطة على كل ما يتحدث عنه الناس». تنهد السيد "فون موربيك" وقال: «يا لهم من بشر أغبياء. عندما تدور الشائعة في القرية وتعود من جديد ثلاث مرات، فإنهم يعتبرونها حقيقة. لم أُصادف في أي من رحلاتي شعبًا أو حتى شخصًا واحدًا لم يغتب شخصًا أخر بمثل تلك الطريقة». أشعل السيد "فون موربيك" غليونه من أجود الأنواع. كانت هذه إشارة إلى أنه يتأهب لواحدة من حكاياته الأطول. «يمكن للإنسان بهذه الطريقة أن يكون شيطانًا أو ملاكًا. سواءًا أكان رجلًا أم امرأة، غنيًا أم فقيرًا، لون

بشرة وجهه أسود أو أبيض أو أصفر أو أحمر، يصلي لله العظيم أو للرب العزيز، يحب أن يسحق الكرنب المخلل أو يدخن الغليون، فإن هذا لا يمثل فارقًا تمامًا».

لم يفهم "جوستاف" العلاقة بين الكرنب المخلل وآكلي لحوم البشر. لكنه لم يجرؤ على السؤال عن ذلك. وعلى كل حال، كان "جوستاف" يهتم أكثر بالسهام التي كان الصبي ذو النظرة المتجهمة يحملها في يده وبالكلمة التي هتف بها الرجل الجالس على الدراجة العالية وأصابت "جوستاف" كأنها صفعة: إن آكلي لحوم البشر ينحدرون من منطقة الكونغو التي اختفى فيها والده بلا أثر، من قلب القارة السمراء، حسب تعبير السيد "فون موربيك".

لذلك صاح "جوستاف" بانفعال: «ربما يكن أحدهم قد رأى أبي». لم يكن "جوستاف" قد تلفظ بالجملة كلها عندما اتضح له بالفعل أنه لم يكن صفيقًا فحسب وإنما كان أحمق أيضًا.

وهذا صحيح: فقد ضحك السيد "فون موربيك" على ما قاله على الفور. وأخرج ورقة كبيرة مطوية من الخزانة، التي يحتفظ فيها بكتب أطلس وبخرائط كبيرة من كل أنحاء العالم، وبسطها على الطاولة.

«هذه إفريقيا. يمكنك أن ترى الصين والهند والولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا القديمة الطيبة وأكثر من ذلك. إنها كبيرة جدًا بلا حدود».

انخفضت زاويتا فم "جوستاف" نحو أسفل.

«وانظر إلى هذا: نهر الكونغو. إنه نهر، لم يكد أحد حتى الآن يزوره من المنبع إلى المصب. ولو فعلت ذلك، فعلى الأرجح أنك ستقابل في هذه المغامرة شعوبًا مختلفة أكثر ممن ستقابلهم لو سافرت في رحلة من باريس إلى منغوليا». طوى "فون موربيك" الخريطة من جديد. «حسنًا، والآن نكن قد ثرثرنا بما فيه الكفاية. هل تريد أن تأخذ معك كتابًا أخر؟ لقد حصلت بالأمس تحديدًا على نسخة حديثة الطبع من إحدى قصص "كارل ماي"، قصة عن الغرب المتوحش، أنت تحب تلك القصص، أليس كذلك؟»

قال "جوستاف": «ليس اليوم، سأخذها معي مرة أخرى». لو حدث هذا في أي يوم أخر، لكان "جوستاف" قد انتهز الفرصة؛ فالكتب، التي يزوده بها السيد "فون موربيك"، تعد، في كثير من الأحيان، تسليته الوحيدة بعيدًا عن الحياة اليومية البائسة في مزرعة عمه. أما اليوم فلا تزال لديه خطة أخرى. والكتاب الثمين، الذي يجب على "جوستاف" أن يحافظ عليه عندئذ، سيعطله عن ذلك فحسب.